ما تزال الشمس مشرقة

سالم القرعاوي

انت : كنت تحمل عيني مكلولين بسكون الموت. تلتصق الاجساد المتوسرة ضمن « المساكين » و « المبني » و « السارلسون » تلتصق عنوة على زجاج عينك .... ومن بين الزرامات المتناطرة كنت تشق طريقك باحثا عن شيء .. تعزو ابواب صمتك .. شيء يستقر بين خلايا عقلك . المهم انه شيء تضج به راسك . قد يكون هدير المدافع الهائلة .. او ازيز الطائرات .. او الارض التي باتت تشكو الانقاض ..... ستدحرج راسك مثل عمامة صريعة .. تحاول ان تقطع هذه المشاهد .. ولكنك تقف كطير سجين .. تحدق تمعنين مرتقبا قسرا .. تستقر تلك الاجساد النملة الهاربة. تحس ان اللهاث يصب فوق راسك ...

الانوار الحمراء .. الخضراء .. الصفراء .. تعزو عينيك . هي باتت عيناك ساهلان و حصت الاضويه .. واضحى البصر عمله صعبة . الليل يرسل نجومه على مدينة تتحرك كل شيء فيها بالقوه . واجهات المحلات تتراشق بالاضويه ... الملاهي .. السينمات .. السيارات تتسابق بجنون .. كل الاشياء تنهار . ويبقى جسمك يحمل تحببا صامتا ..

صوت الفتاة : ـ « التحب الصامت يولـد الانفجار »

ـ « ولكنهم حطموا كل شيء .. فتحوا ابـواب الموت » .

تحس بالحنين .. تقبض على جوانبك رغبة باحتضانها .. ولكن.. لقد بدات الاشياء من حولك تتراكم .. اشياء غريبه وقاسيه .. بينما الاشياء السمحه تهرب حتى من مجرد الحلم بها.. الحلم يكاد يكون صعب المنال .. تحاول ان تتذكر المدينة .. شوارعها .. باباتها . مئذنة المسجد ... تعصر راسك بيديك عصرا قاسيا يكاد يكون وحشيا .. ولكن دون جدوى .... بعالك ترف بتدفق في دواخلك .. اشبه بالعذابات المنجمة .. ثم تلفك غربة عصيبة لما تحسها قبلا ... تدور .. تلف الشوارع .. تسرع .. تعدو .. الخوف والوحشة تعبدانك باصعادهما .. تسرع كالمجنون .. تسلب محاولة فاشله في الصراخ ...

صوت «ا» : (تقاطرت عليه الاشباح . كان ذلك في ليل تستعر بوحشيه .. تحيطه بهول الرهبة .. تصرخ به شبح) :

ـ قف ... ايها الغريب

تقف متسائلا باحثات .. ثم تتسحل عن السؤال .. تظل ساكنا .. تسمو في باطنه مرارة عسيرة .. كعملية تستعد بعبور الى نهايتها ـ يدوم ان يمد حسده .. فقد سئم .... ولكنه يملىء خوفا من الشبح .. تحتدم به لعنات عاد وثمود .. يحاول ان يسرق جسده .. ان يرفض موقعـه . تصرخ بخفوت :

ـ أريد ان اسير ..

يراجمه الشبح فيصفعه بقسوة .. لبرده الـى الرصيف كذئب جريح ... يقف وعلى راسه يجول الانتظار .. ولا من نهاية .. او بداية .. يبدو ان الجميع يتساقون لان يرموه بكابوس جهنمي ..

ـ « لو تنحرا أوصالي »...

تحبب الاطفال يمور في صدرك ... خطواتك مرهقة .. الشوارع تستدرج جسدك .. لتمتص ما تبقى منك من قوة .. الرحلة التي ابتدأتها تكـاد تجنح على التوقف ..

صوت الفتاة : ـ « الى اين ايها المتعب ؟ »

ـ « الى اللاجدوى .. الى الحلم » ..

صوت الفتاة : ـ « لكن حلمك انتهى .. وانك الان أمام اختيار صعب ».

تعتز اليك رغبة في ان تصل البكاء .. بيد لا تحتمله وسط هذا الليل الذي غطى راسك وكانـه غار من الزمن القديم .. غار لا ينتهي .. تقـرر ان تهاجر .. تهاجر الى بعيد وسط صحـراء .. لتاكل من رمالها .. ترحل حيث السقطة الابديـة .. تاكل وتنام كباقي الناس .. فلا تفكر ...

موقف رقم «١» : (مدينتي الساحرة ترقد بأمان على الساحل .. انها عروس البحر .. يرتادهـا الصيادون من كل البلاد .. كانت تطلق اجراسهـا .. لتنهض الجميع في الصباح تحت الشمس التي تساقط وهجا مبتهجا .. مع البحر كانت مدينتـي تغني .. وعلى اصوات الصيادين كانت تنتشي ...

قال والدي : « بني هذه المدينة دمرهـا الغزاه .. وطردوا اهلها .. وما بقيت الا انـا وبعض الاهل .. تذكر ذلك يا بني »

اسكع في شوارعها على ارائش ذكرى والدي .. ولكن احلامي تذروها الرياح .. حتى رحت اعثر في شوارع مدينتي .. بت غريبا تائها..

والدي على فراش الموت : ـ « عزيزي تذكر ان المدينة لن تتخلى عنك .. وصيتي المدينة .. فلا تعرفها بالنسيـان .. »

يراودني احلام غريبة .. احلام تحمل الرعب في رسوم لوحوش كاسرة .. تقترب من عيني.. انها ليست احلاما .. بل نقطة تنمو على هيئة نقاط سوداء .. كل الاحلام ترتجف ترعب .. رحت ان اصرخ.. الاشياء تختفي حتى النور الذي التمس الطريق عليه .. صوتي يموت رويدا .. تكبر النقاط السوداء . تاتي كريح صرصر عاتية . اندفع بسرعة لاجمع قواي . ولكن الزمان اهرق من بين يدي . كما يتبدد الماء من اناء مقلطح . يوضحت النقاط اكثر ارى طيورا سوداء تقترب. تهاجم المدينة . وانا انخبط مرتجفا وصائحا في ان احمي شيء . اضرب بقدمي الارض كالغريق. اغمضت عيني فسقطت على كوم من التراب . لثمته . بكيت . بحثت بيدي في التراب لاغوص فيه ... كان صوت والدي ينبعث من جسدها الملفوف بأثواب بيض ملطخة بالدماء ليخترق سمعي : ـ « انها الطائرات يا بني . »

ـ انها الغربان السود يا والدي ...

ثانية يأتيني صوتها مخضبا بالالم : ـ « اني اموت ايها العزيز . لقد باعنا الجبناء »

ما زال جسدي يتمرغ في التراب ...

نضيع عندك كل الكلمات .

صوت الفتاة : ـ « حبيبي لا تمل الرياح . فانا اعشقك فارسـا مضرجا بالـدم . يخوض النيران وعلى جبهته راية الانتصار . فارس لا تمل المسيرة . »

كل شيء صاخب . الشارع . السيارات . الصخب يغزو راسـك . يزحف جسـدك يتثاقل مثل نملة .

ـ المهم الا ابقى . ان ارتدي ملابس الرحيل.

لقطه : ـ (عيناها طفلان بريئان . يرسـلان اشعة قدسية الى وجهه . يغوص في عينيهـا . وكانهما سحر يجذبه . يرشق وجهها بماء النهر. يتضاحكان . يرتشفان من ماء النهر .

ـ هذا عهدنا .

يسحب راسها بحنان . يلصقه على صدره . فيحس بدفئه ينساب اليه . لاحظ ان دمعـة انبثقت من عينها .

ـ « مـا ارقب من حبك ايتها الحبيبـة الساحرة !! »

تجفف دمعتها : ـ

ـ سترجع ...

ـ يا حبيبتي انا سائر لا يكف عن السفر.

ـ ولكني غرقت في البحث عنك .

ـ انا مسافر مع الرياح . مسافر مع الطريق.

ـ قلبي سيظل مصلوبا بتلك النجمة .

تشير بسبابتها الى نجمة بعيدة ساطعة : ـ

ـ انها القضية يا حبيبتي .

ـ سادعو تلك النجمة . سأبتهل من اجل ان تبقى ..)

صوت « ٢ » : ـ (في شارع ينام بين اذرع الليل . يطارد رجلان ـ يتسربلان ملابس الشبح ـ

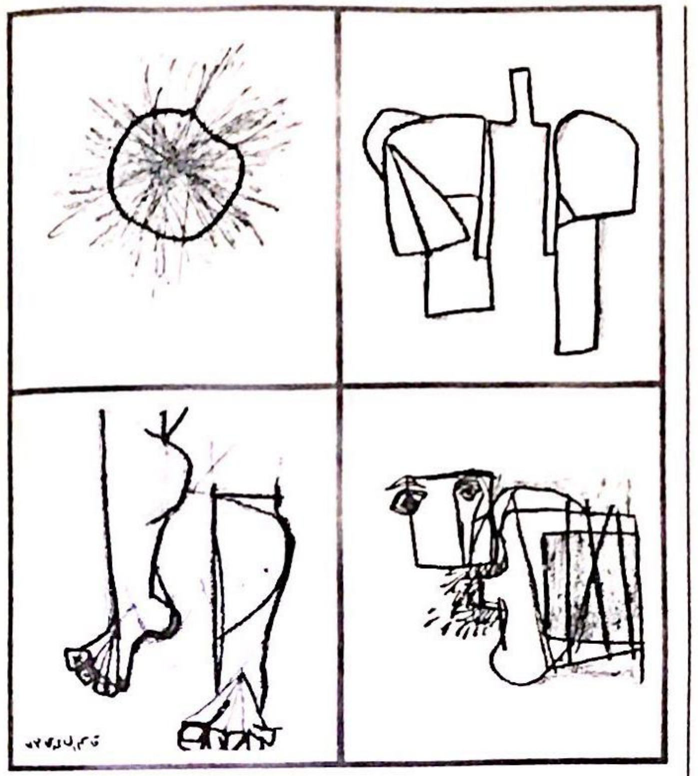

فتاة جميلة تصرخ . تتوسل . والشبح ساكن يروم لحظة الغزل ... وقفت بين مخالبهـا الحادة . حملاهـا كفريسة وذبيحة الى الشبح الذي ظهرت اسنانه مكشرة عما يضمره . يعريها. ثم يفضيها بوحشية . تدفق منها الدم كنافورة. تخض كحمامة بين انياب قط . حتى خمدت حركتها ... يزمجر بضحكة هستيرية ...

يعاود الرجلان البحث . عن شيء جديد . فيظفران بشاب حاول المقاومة . ولكنهما يستدرجانه . يقيدانه . يضربانه حتى تتخلف طعنات زرق على جسده بينما الدم يتسرب من جسده ...

يجمعان الشاب والفتاة . يرقصان حولهما رقصة عشائرية . ثم يقتلانهما . ويصرخان

ـ انا نقتل الفجور .

تصرخ الشبح متضاحكا : ـ انهما يحبان...)

موقف رقم « ٢ » : ـ (أبحث وسط الشارع عن سر . او شيء مجهول . يعرق من امـامي شابان يغزو عيونهما تعطش الى الافخاذ العارية التي ينحسر عنها « الميني » . يتفحصان بشبق الاثداء والصدور . كنت انشغل عن بحثي في متابعتهما . عيناي ترتكزان على احمرار عيونهما. يرشقان الفتيات بكلمات غزلية :

الشاب الاول : في امريكا عرضت مسرحيـة الشعر ـ

الشاب الثاني : وما الغرابة في ذلك ؟

ـ هه . انك ما زلت تتسربل بؤس القرون.

ـ وهذه خيبتك .

ـ يا ساذج. ان الجنس يمارس امام الرواد.

ـ يا لهوسك الخيالي دعنا نتمتع هنـا ودع امريكا (لشعرها) .

يسكتان . فيتابعان همجيـة عيونهمـا نحـو الافخاذ ...)

نبوءة العرافة : ـ « ستكون في ديارك غريبا. وسيخرج شخص من اهلك. او من يدعي بذلك. ليقتل ما تطاولت عليه يداه . تذكر ذلك ايها الغريب »

موقف رقم « ٣ » : ـ (حينما اجتمعوا عليه. حاصروه بوحشيه . كان وحيدا مع رشاشـه . سابق عليه جند البادية من كل حدب وصوب. انتشروا حوله كالجراد :

جندي : لنمنع عنه الخبز .

جندي اخر : لنحرمه الماء .

ولكنه لما يدرف الا الصبر والمواصله في الدفاع عن الجبل .

روى لي صديقه : ـ « كان يهتف : ساحطم الاصنام . قل لاخواني ان الجبل صامد .

تهامس الجند بخوف: حينما يزمجر سيحطمنا بالفعل . تحاملوا عليه باي ثمن .

مكبرات الصوت تعلن : انذار نهائي . ارفـع الراية البيضاء . استسلم .

وقف كفارس يدافع بكل ذرة من ذرات جسده : كنت اسمع البارحة بيانـا يغري قاتلي بـآلاف الدنانير »

الصديق يروي لي : « حين قال ذلك ضحك بملء شدقيه ساخرا :

ـ ايها الاخ ان الملك يبذر امواله كثيرا ... »

والدي قال لي : عزيزي ان جسدي سيبدو فيه التاريخ .

ـ وما التاريخ يا ابتي ؟

وحينما تكالبوا عليه وقتلوه . كان المذيع

ـ سيف يشهر في وجوه المنافقين .

يزعق : ليستسلم الجميع . فالطريق مسـدوده من امامهم ...)

انت : تتدحرج اللحظات بتثاقل فوق جسدك المتعب . تحاول ان تستنشق الهواء بيسر . انك لا تملك شيئا تحاول به ان تنتزع عن تفكيرك هذه الجثث الماثلة . المبعثرة في كل مكان. ولا من احد يهيل عليها التراب . هذه الجثث الملقاة بالامها على الارض . ساكنة وكانها تتحدى كل شيء . تشهد الزمن بانه زمن الدم . زمن الانهيارات .

تفرش لجسدك مكانا . عيناك تسران فوق الجثث برهبة والم .

صوت مجهول : « احرس ان تحلك رجـال دافعوا عن المدينة »

تنهض . تسير .

الصوت المجهول مره اخرى : « غدا سينهض النائمون مضرجين بالدماء . سيواصلون سفرهم. لذرع الدروب . »

تدخل زقاقا مليئا بالجثث. تتقاذفك الرهبه. تلتهم نيران الحزن . وتنمو . تتمنى ان تبكي. ان تغسل عينيك بدموع تبلل الاجساد. تسير تحذر.

صوت رقم « ٣ » : (تصرخ وسط الشارع : كفوا من الانتهاكات .

يضحك الشبح : لقد نطق الوهباء !.

جسده يضحي متناولا ما بين ايديهم. يركلونه. يضربونه . وحينما يستحيل جسدا هامدا . يرمونه وسط الشـارع . ينام . ثم يتلاشى الشخصان والشبح في الظلمة يزاولون اللعبة..)

لقطه اخرى : (على رمال الصحراء . كانت مجموعه من الرجال تتنكب السلاح . تجوب المكان بحذر. مقاومة الجوع والعطش. انهم لما يتناولوا شيئا يقتلون به رمض بطونهم . عيونهم كانت تتخطى كل شيء في الصحراء .

ـ لنسرع فالوقت قد آن .

ـ القافله ستمر من هنا .

ـ الجميع في حالة تأهب .

يرفعون اقدامهم بكل قوة يملكونها . متجاهلين التعب ... كان الصباح قد اوشك على البزوغ. حيث احد الديك يعزف نداءه السرمدي. اوغلوا في بطن الصحراء . حيث باتت لابصارهم ملامح القافلة عن بعد قريب .

ـ سننقض الان للقافلة ...)

صوت « ٤ » : (تنتشر الفوضى فوق الشارع. الدباغ يزعق بصخب . ينقل ما تقياه وكالات الانباء . الالاف تتساقط . الطائرات تلقي قنابلها المسعورة. جند البادية يقتلون النساء والاطفال ... يبصق على الدباغ . ويوالي سيره من جديد... الساعه واقفة... والشبح ساكن... يعود الرجلان وسط الشارع . يرقصان بهستيريا . يزعقان :

ـ ليموت كل شيء ...

صوت الفتاة : « يا حبيبي . اين العهـد ؟ اين الاشياء التي ستخضر ؟ »

تتصادم السيارات ... الشبح يضحك ...

يرقص الرجلان وهما يراودان وبدون اختيـار كل من يمر في الشارع. يجبرانه على ان يغتصب ... يموت كل من يقع بين انيابهما ... الشبح يضحك .

ما زال يبحث من بين الاحنويه المترافصة عن مدينته التي انتهكت ... يصرخ :

ـ متى تدق الساعة .

يضربه الشبح وهو يقول بحنق : دعك . انك لست ممثلا بارعا . ان السينما تحتاج لممثلين نابغين .)

موقف رقم « ٤ » : (الغربان السود تتطاول في صب النار على المدينة. كان كل الذي استطيعه هو البكاء . لابكي . حيث الملح الشارع متخما بالجثث العارية . حين ارى اعمدة الدخان مهيمنة على المدينة . اهز راسي . ليقف عليه طير ينقده . يبحث عن عيني . راسي يتخضب بالدم . وانـا اقاوم . اعفر راسي . انهض . اعدو . سقطت على الارض . ثم تدحرجت فـي حفرة ترابية :

ـ « الم اقل لك يا امي انها الغربان ؟ »...)

صوت « ٥ » : (يموت كل شيء فيـه حـين يلقى جسده مطوقا باجساد تصرخ :

ـ نهضا من القبر .

بصمت ولا من شفيع يقدر ان يلفه بأمنه :

الجدث الاول : التقت بعرس القضية لا

ـ جئت لاذرف الدموع .

الجدث الثاني : ولكنـك تحرق جفنيك سلا وازع .

ـ ولكن الاشباح طاردتني .

الجدث الثالث : وماذا فعلت غير الرحيل.

ـ جئت لامحي عن ساحتي ابعاد السفر .

الجدث الرابع : ما قلت زمن الياس.

ـ وزمني زمن التفي والتكالب .

الجدث الخامس : وتقاطر على الاهل .

ـ قام من بيننا حجاج به لوثة بدوية .

الجـدث السادس : ليس الجوع الا تحمـل الاله .

ـ لكنني اعماق بلا جوهر. املي هرب مني .

الجدث السابع : لا تتجاهل الدماء . قابلنـا ثانية .

ـ حينما البس ثوب الفارس .

الجدث الثامن : سنقابلنا .

ـ سابحث عن الشبح .

الجدث التـاسع : كن ابن الانبيـاء . حيث صوتك يعلو . يستشري .)

لقطة اخرة : (ـ جئنا لنختم العمر بزهـور توضع فوق جثثنا .

ـ وستزف اليفتياتنا بعرس تشهده الشمس.

ـ لن نموت . سنسحق جند البادية .

ـ اعماقنا لا تقبل الا الانتصار. جذوة لا تخبو.

ـ اخواني الميدان يناديكم .

يتشبثون باسلحتهم تشبثا سرمديا. يقاومون. ينقضون على مواقع البدو. يلمحون طائرة تسقط ثم تحترق .

ـ سلمت زنود الرجال .

تحور في عينيه المدينة . يتراقص الرجـال من امامه . عيناه تفقدان وضوح الرؤية. يسقط معانقا الارض .)

موقف رقم « ٥ » : (تهز المدينة القنـابل المدمرة . لقـد زرعت الموت في كل مكـان ... الاطفال يخرجون من بيوتهم عرايا. يبكون بحرقة. فاجسادهم تحرقهـا القنـابل . ومن من يسكت السكتة الابدية ... ينهار العالم من امـامه . تموت البسمة على شفتيه. يظل صامتا . لا يدري عنه الاشياء . وتبقى وسيلته ان يهرق الدمع... عن قربه كان شاب ينثر المتاريس امـام القصف الجهنمي حينما رآه مطرقا . صرخ به : تحـرك يا اخي . فلن تستسلم المدينة)

انت : يئن الشارع من تسـاقط الاجساد . حينئذ تصرخ صرخة يصمت لهـا الشـارع : الوقوف مستحيل .

ولكن الشبح ساكن يقهقه ... والمدينة تنفض عليها مجاميع الغربان السود ... تصيخ لاغنية طفولية . تدب فيك بسعادة انها تصنع عالمـا ستتحدث في عينيك ... اخترقت الحدود لانها منبعثة انبعاث شلال سرمدي ... تسير والطريق شديد الزحام. ان العذاب والصبر الذي تواجهه هو ان تبدا الرحلة الشاقة . رحلة العذاب . بين كل البشر التي ما برحت تغادر المكان.

صوت الفتـاة : « حتام قـدماك تنهكان . الريح تنشد يا حبيبي »

تقودك قدماك المنهكان الى شوق تعشقـه . اللحظة التي حلمت بها وانتك . وليكن كل شيء لتهدم الدنيـا . فما عـدت تحتمل السجن . والقضبان تفت جسدك . كان الشبح يضحـك ضحكة عالية . التحمت معه .

جاءك صوت محذر : لقد سقط الشبح .

صوت الفتاة : « نريد يا حبيبي ان ننام على ارضنا . لنسحق الغربان . » .

هو : يتفحص الوجوه المسرعة والمطلة اليه. اخذ يتمتم بغير وعي : الغربان . الغربان.

كان الرجال يلتفون من حوله . يقتربون من نعيه الذي تعثر في بؤبؤ الصبابه . يسحب نفسا اخيرا من بين منخريه . ليشم البسمة المطلة على وجوه الرجال السماوية . كانت القطرات تزحف بهدوء فوق وجهه المهاجر .

ـ الوصية . انها الوصية .

تمكن قليلا من قوته . تثب امامه « ممرضة » تشكه في عضده . يهمس الرجـال الملتفون بملابس « كاكية » :

ـ انك ابن الانبياء .

ومن جديد يصادفه الوجه . يغمض عينيه ثم يفتحهما . تنزلق نظره على الوجه الذي رافقـه طيلة مسيرته . تقترب من وجهه . تضع شفتاهـا على جبينه . تمرر شفتيها على جبهته . كـان يحس بلذة مسكرة. يحس بجسدها يهز فوقه :

ـ حبيبي .

تبكي . تفر دموعهـا لتسيل فوق وجهـه . يصمت امامها . حين تتهادى اليه اصوات عرفها من مئات السنين .

صدى : « يا ابن الانبياء . يا شمسا منحت الحوادث وضوحا . وجهك يملىء نشيد سرمدي . مدينتك لن تموت ... »

الفتاة ما تزال متشبثة به . الرجال يحفون حوله ...

تقترب الفتاة من النافذة . ازاحت الستائر. حيث كانت الشمس عذراء ترسل خطوطا ذهبية.

ملاحظة : قرعت الاجراس هذا اليوم . حين مر بالمدينة شاب يتنكب بندقية . وكان يمشي. يمشي صوب النهر . ليعبره ...

أخبار ثقافية

● اقيم معرض لرسومات ابناء الشهداء ولطفي قاسم في قاعه الرياضة بالجامعة العربيه، كما اقيمت امسية للفولكلور الفلسطيني في قاعه جمال عبدالناصر، تبعها ندوه شعريه اقامها احمد دحبور ، مؤيد النجاش وابو الصادق ، وهناك ندوه سياسية تعرضت للاوضاع الفلسطينية الراهنة .. كان ذلك النشاط الثقافي الذي تضمنه اسبوع الكرامة بمناسبة مرور ست سنوات على معركة الكرامة العظيمة .

على مسرح بيروت ـ عين المريسه ابتداء من ١٩٧٤/٣/٢٦ عرض مسرحية الشوط الاخير من تاليف واخراج روبير عطالله وتمثيل اوديت ملكون ـ محمود سعيد ـ جهاد الاطرش ..